جَـامعَة الرّوح القـدُس – الكسْـليك
كلّيّـة الموسيقى

المقدّمــــــة

بقلم
الأب أيّوب شهوان

مستلّ من كتاب
"بحوث مهداة إلى البروفسور الأب لويس الحاجّ"
(صفحة ٣-٩)

المقدّمة

الأب البروفسور لويس الحاج
عالمٌ موسيقيٌّ كبير من بلادنا

ثمانيةٌ وثلاثون سنة مرّت، قلْ عمرٌ هو، على تَخَرُّجِ أولِ لبنانيٍّ، لا بل أول شرق أوسطيّ، بدرجة دكتور في العلوم الموسيقية، هو الأب البروفسور لويس الحاج، مؤسّس معهد العلوم الموسيقية، في جامعة الروح القدس، الكسليك، هو الوحيد في كلّ منطقتنا.

وفي ذات التوجّه للرهبانية اللبنانية المارونية، تخرّج أخصائيّون من أبناء الرهبانية في اللاهوت، والفلسفة، والحقوق، والأنتروبولوجيا، والفنّ المقدس، وعلم الآباء، وعلم الاجتماع، والاقتصاد، وإدارة الأعمال، أقامتهم الرهبانيةُ خدّامًا للكلمة، روّادًا في الإبداع، ومعلّمينَ للمعرفة، وناشرين للعلم، ودعاةً للعدل، ومنظّرين للتدبير الاقتصادي، وموجّهين في الأبحاث الاجتماعية، الخ. كلُّهم آمنوا بهذه التوجّهات، لذا عملوا وعلّموا، فإذا الحصاد الوفير علّةُ حياةٍ لهم وللكثيرين، في هذا الوطن وحتى أقاصي المعمورة. تلك كانت سياسةُ الرهبانية منذ خمسينات القرن العشرين، سياسةٌ فاعلةٌ، متطوّرةٌ ومطوِّرَة؛ رؤياها بعيدةً كانت مدَّ الآفاق، وجامعةُ

الروح القدس اليومَ هي حلمٌ علميٌّ، كنسيٌّ ووطنيّ، هي مكان يتلقّى فيه أبناؤنا وبناتُنا الكفاءةَ والمقدرةَ بنيانًا متينًا لمستقبلٍ كريمٍ وحياةٍ هانئة.

في إطار هذا المنحى، وضمن هذه الكوكبة، كان الأب لويس الحاج مؤسِّسًا وعَلَمًا في جامعة الروح القدس، بعلمه وعمله، بقواه العقلية والجسدية، بطاقاته الفكرية والروحية، فإذا هو كوكب يقود، ومنارة تُضيء، وإذا به يُضحي مُقامًا طيّبًا، إليه يأتي الكثيرون، ومعه يقيمون، ومن معرفته يغرفون ويغبّون.

عندما تحدّق إلى الأب لويس الحاج، فإنّك تتبيّنُ فيه طاقةً فكريةً استثنائية، وقدرةً على الإبداع رائدة، ودفقًا من الإنتاج هو كخيرات سِنيٍّ البركة، وإقدامًا هدّارًا هو صِنْوُ شلاّل جزّين جار قريته، والكلُّ مزيَّنٌ بتصميمٍ على الجهاد حتّى سكْبِ النفس، وبفضيلة المحبّة، المحبّة حتّى الغاية، ممّا يعني الانسلاخَ والتجرّدَ والزهدَ من أجل الانصراف إلى خلوةِ العالَم الخلاّقة، والانطلاق من ثمّ في الأرض كلّها، كما أمر المعلّمُ الأحبُّ والأسمى، ليعلنَ الموسيقى رسالةَ خلاصٍ من آلامٍ وشرورٍ لا تُحصَى، رسالةَ كرامةٍ للإنسان، ومحبّةٍ وتناغمٍ وسلام.

سنواتُ عملِ الأب لويس في الموسيقى بلغتِ الأربعين، كدّسَ خلالها في أهراءات الموسيقى مؤلفات ومقالات، محاضرات وندوات ومؤتمرات، كونسيرات وتسجيلات، يتطلّب تحقيقها طاقات أكثر من فردٍ أحد. لن نكون إلاّ منصفين إن قلنا إنّ الأب الحاج قد خلق مكتبةً موسيقيةً علميةً، مارونية خاصةً، ولبنانيةً شرقيةً عامةً، في العربية، والفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، والأسبانية، وغيرها، مكتبةٌ ملأتْ رفوفَ مكتباتنا، وأضحت مرجعًا عالميًّا اقتنتها جامعاتٌ لا عدّ لها في مختلف أقطار المسكونة. وكان للأونيسكو ما كانت تبحث عنه، إذ وجدت ضالّتها في الأسطوانات والمؤلّفات التي أنتجها عالِمُنا الكبير.

مَن نكرّمُه من خلال تقديم هذه البحوث له، كان قد خزّن، قبل أن يصبح ما هو عليه اليوم، وخلالَ سنيِّ دراسته، الشهاداتِ الجامعيةَ المختلفة، في اللاهوت،

والفلسفة، وفقْه اللغة، والعلوم الموسيقية، كما تلقّن اللغات العربية، والسريانية، والفرنسية، واللاتينية، والإيطالية، والإنجليزية، والألمانية، مارسَ بعدها مهنةَ التعليم بمنهجيةٍ ووضوح فريدَين، فاستهوى تلامذته الذين اعتبروه المعلّمَ السهلَ المُمْتَنِعَ.

لقد أدرك الأب لويس أنّ الساكن في الأعالي قد أنالَه من نِعَمه غَمْرًا، ومن مواهبه فيضًا، وأنّ عليه أن يكون بالوزنات بَرًّا، وتجاه مَن ولاّهُ على الأكثر أمينًا. الوقت عنده عطيّةٌ من الله مقدَّسة، والعملُ بالنسبة إليه موقفُ طاعة وفعلُ حُبٍّ لِمَن أمرَ وأوصى به. في عقله المُلهَم، هناك، كان اللقاءُ والعناقُ الحميمُ بين الموهبة والعِلْم، الأمرُ الذي أثمرَ ما الروحُ به يجودُ على الملهَمين، كاشفًا لهم ما عنه يعجز المجبولُ من تراب الأرض. لقد تأكّدَ أنّ الموسيقى قادرةٌ أن تُرديَ ما يناهضُ إنسانيةَ الإنسان، وأن تَرُدَّ المعوز المُعاني من أرضٍ تُنبتُ شوكًا وحسكًا إلى جنّة تدرُّ أشهى الخيرات وأطيبَها، فمدّ الباعَ ووهب، موقظًا عظمةَ تراث موسيقيٍّ لا يضاهيه أيُّ تراث، ويجعلها مفعّلَةً وفاعلةً بالأفضل من الطُرُق والأكثر منهجيّةً من الوسائل.

بالموسيقى، موسيقى شرقنا ولبناننا، خاطَ الأب لويس وِشاحَ فنٍّ بديعٍ جلّلَ جامعتَنا، وكنيستَنا، ووطنَنا، وشرقَنا العربيَّ؛ كذلك راحَ يجوبُ العالَمَ يلقي المحاضرات، معرّفًا بغنى الموسيقى السريانية المارونية، وبالتراث الموسيقي الشعبيّ اللبناني، وبالموشّحات الأندلسية العربية؛ لا يعرف الراحة ولا يهدأ، فالمُعطَى من فوقُ أضحى عنده دَفْقًا «يجري من جوفه أنهارَ ماءِ حياة».

«للمرة الأولى في تاريخ الكنيسة المارونية، كما قال المطران ميخائيل ضومط (†) سنة ١٩٧٠، ينكبّ أحد أبنائها على تراثها الموسيقيّ العريق»، وَفْقَ منهج علميٍّ دقيق المعالم، وبتوجّهات شمولية حَدُّها الحبُّ للإرث الموسيقيّ السريانيّ المتنوّع، هذا إنْ كان للحُبِّ حدودٌ.

لقد رَقَى الأب البروفسور لويس الحاج بجماعاتنا المُصَلّية في الكنائس وفي الأديار، في صلاةِ كلّ يومٍ كما في الاحتفال الكبير في يوم الرب وأعيادِه، إلى ذُرى

الأداء المتْقَن، وفي الترنيم والتهليل والتسبيح، وبالتالي إلى اللقاء الروحيِّ الأبهى في عبادة الخالق المُبدع والمنظِّم الرائع لهذا الكون، الذي منه تصعدُ إلى الساكن في الأعالي تسبيحاتُنا وتهاليلُنا، تعزفُها قلوبُنا الخاشعة، التائقةُ إلى منافسة مسبِّحيّ السماء الهاتفين بلا انقطاع: «قدوس أنت، أيها الرب».

فبفضْل ما كدّسَ الأب لويس الحاج من علْم ومعرفة، ولكثرة ما تمرّسَ على الإنتاج والإبداع، وانطلاقًا من قناعته الأقوى من الصخر بأنّ كنوزَ الكنيسة السريانية المارونية هي عظيمةٌ بلا مثيل، وخالدة بفضل تناقُل الأجيال لها، إذ عَبَرَت الزمانَ وستبقى، ولأنّه رأى أنّ الكثيرَ مطلوبٌ، حتى عُنُقَه وراحَ يعملُ بلا كلل، فانكبَّ على أرض الموسيقى المارونية، يحرثها ويعتني بها، ويرويها بعرق الجبين، مبيِّنًا إيّاها، كما هي منذ البدء، آيةً في الروعة والجمال.

الأب لويس الحاج، دوّن وسجّل، وأصغى وناقش، وقارن وكتب، ونشر وعلّم، والهمُّ هو هو أبدًا: الموسيقى السريانية المارونية، فإذا بها من جديد كالعروس البهيّة، لا عيبَ فيها ولا غَضَن، منقّاة، كاملة الأوصاف، فجذب الكثيرينَ إلى تأديتها بشغف وحماس، في السريانية والعربية، في الإنجليزية والفرنسية والأسبانية وغيرها؛ وحيثما صدحت أصواتُ مرنّميها، في العبادة أو في حفلات الجوقات التي لا عَدَّ لها، وفي طليعتها جوقةُ جامعة الروح القدس، التي واصلت مع الأب الحاج رسالتَها بأبهى ما يكون، كانت تشكرها موجاتُ التصفيق وانسكابُ أطيب المدائح والتهاني عليها.

لقد جَمَعَ الأب الحاج إلى تَمَكُّنه من التقنيّة العلميّة، القدرةَ الكبيرةَ على التفاعل الكيانيّ مع بحثه؛ فعلْمُ الموسيقى عنده ليس مجموعةَ تقنيّات موضوعية وحسب، بل تفاعلٌ يليق بأقدم فنٍّ واكبَ الإنسانَ منذ كان الإنسان، الفنّ الموسيقيّ.

عندما أطلقَ ورشةَ العمل الموسيقيّ الضخمةَ سنة ١٩٧٠، انطلقتْ في موازاتها ورشةٌ أخرى، هي النهضةُ الليتورجيّةُ المارونيّةُ، والاثنتان في رحاب جامعة الروح القدس، الكسليك، وكأني بالمعهدَين الأكاديميَّين يندفعان في تفعيل تعاليم المجمع الفاتيكاني الثاني وتوصياته، وإذا بالكنيسة المارونية سبّاقةٌ في التجديدَيْن، الموسيقيّ والليتورجيّا، وإذا بالمردود، وبسرعة قياسية، يتجلّى في الأديار والكنائس والجماعات، كما في قاعات الحفلات الموسيقية في لبنان وفي مختلف أنحاء المعمورة. لقد وضع هذا المشروعُ الموسيقيُّ والليتورجيُّ الفريد، الذي قام به رجالُ معهدَين فريدَين لم يكن لهما من مثيل في كلّ الشرق الأوسط، حدًّا للمَسَاس بالليتورجيا وبالموسيقى. نعم، لقد انطلق الأبُ الحاج في نهضته الموسيقية المارونية في وقت كانت فيه ألحان وأناشيد من كلّ لون وكلّ نوع تغزو كنائسنا ومعابدنا، فَرَدَّ الحياةَ إلى أثمن كنوزنا وأغلاها، التي أسهمتْ في تكوين وحدة روحية ولا أقوى بين أفراد شعبنا الذي عرف أن يصلّي ويرنّم لله ويسبّحه بهذه الأنغام والألحان البسيطة والفاتنة في آنٍ معًا.

عندما تتكلّم على الأب لويس الحاج، فإنّك تجدُ نفسَكَ أمامَ عملاقٍ في الموسيقى وعلومها، ولكنك تكتشف أنك أيضًا أمام الأديب، والشاعر، والليتورجيّ، واللاهوتيّ، والعارف الجيّد في التاريخ، والإداريّ المُجِلّ في الجامعة وفي تدبير الرهبانية، رجلِ البناء والعمران في الجامعة، ومُطلِق مشروع الموسوعة المارونية وغيرِها الكثير، والذي تحوّل وقت الحرب وبؤسها إلى مُؤاسٍ لمن قهرتهم صروف الدهر، فجمع لهم الأدوية ووفّر لهم المساعدات، والذي كان صاحب الرأي الحكيم والسلاميّ عندما غشّى العنفُ والخصامُ والجهلُ البصرَ والبصيرة.

إنه المكرَّس المصطفَى، والناذر المختار، والكاهن العابد وموزِّع المعرفة، والمرشد إلى شريعة الرب؛ إنه الإنسان الذي نَشَدَ أبدًا كرامةَ الإنسان وارتقاءَه.

أن يتوغّل الأب لويس الحاج في حقل الموسيقى المارونية المتشعّبة التقاليد الشفهية، المتقاربة منها والمتباعدة، تلك كانت المهمَّة الصعبة التي ارتضى أن يحملها على منكبيه، ويسير بها إلى خاتماتها الباهرة التي صارت حقيقة «رأتها أعيننا، وسمعت بها آذانُنا، ولمستها أيدينا». بالطبع، لا تكفي الكفاءة العلمية وحدها في هذا المجال، إذ ينبغي أن يسكب العالِمُ النَفْسَ والقلبَ والروحَ في عمله؛ هذا ما قام به الأب لويس الذي جمع إلى علمه ومعرفته الجرأة والإقدام، والليونةَ والصلابة، والانفتاح والحزْمَ، والكلُّ تحت نظر الله.

لم يكن الأب الحاج غافلاً عمّا سيعترضه من عقبات وصعاب في مشروعه الموسيقي، وكان مدركًا إلى أقصى الحدود أنّ الأشواك ستحفّ بطريقه، لكنّه عاش حالةَ قِرانٍ مع بحثه، ونحن نعلم أنّ في الحب أمانةً واستمراريّةً مهما طرأت النوائبُ، وكبرت العقباتُ أو صغرت، وهكذا كان. كالجرّاح عَرَفَ أن يستعمل المبضع حيثما اقتضى الأمر كي يبلغ إلى مُعطاة ما موضوعية وحقيقية، يُضيفها إلى مثيلاتها، حتى أضحت بين يديه وديعةً علميةً ثمينة، يستطيع مُحبّو الحقيقة أن يغرفوا منها ما يعوزهم في عملهم وفي أدائهم.

مُذَّاك، أن يكون هذا موافقًا وذاك معترضًا على ما يبلغ إليه الأب الحاج من خلاصات في بحوثه الفريدة، فهذا بالطبع أَمرٌ سائرٌ بين بني البشر، ولكنّ كلَّ عملٍ عظيمٍ «يكون علّةً لقيام ولسقوط كثيرين».

إنّ بنيةَ مشروع الأب الحاج الموسيقيّ هي صورةٌ ساطعةٌ عنه: فَـ «قَبْلَ أن يَبنيَ هذا البرج العالي، جَلَسَ وحَسبَ نفقته»، وإذ رأى أنه سيكون قادرًا على إتمامه، انطلق في ورشة إعلاء البنيان، فإذا به مفخرة له ولكثيرين.

في الحقيقة، الأب لويس الحاج هو قدوة في مسيرتنا الإنسانية والإيمانية والعلمية والفنّية والوطنية، ولا عجب!

إنّه صفحة مجيدة في تاريخ جامعة الروح القدس، وفي تاريخ علم الموسيقى عامةً، والموسيقى السريانية المارونية واللبنانية والعربية خاصةً، صفحةٌ صاغها هو، وخطَّ عليها سطورًا من ذهبٍ ستبقى خالدةً.

الأب لويس الحاج، هذا العظيمُ من بلادِنا، يستحقّ بالتأكيد لقبَ «العالِمِ الكبير».